المحور الثاني: المجتمع المشرقي في عهد الفاطميين.

المحاضرة5: دور وواقع المرأة في المجتمع الفاطمي في المشرق.

هدف المحاضرة: رصد دور وواقع المرأة في الحياة العامة في المجتمع الفاطمي في المشرق.

تمتعت المرأة في الحضارة الاسلامية بكامل حريتها في إطار تشريعات الاسلام التي أنصفتها وضبطت حقوقها وواجباتها التي تسمح لها بتطبيق الرسالة المنوطة بها فهل احترم الفاطميون في المشرق هذه التشريعات وأكرموا المرأة؟ وهل سمحوا لها بالمساهمة في الحياة العامة؟.

1- أوضاع المرأة الفاطمية في المشرق في العصر الفاطمي:

تباينت أوضاع المرأة في العصر الفاطمي بالمشرق حسب طبقات السكان فلم تكن النساء على نفس الدرجة من ظروف المعيشة والمعاملة فما عاشته نساء الطبقة الحاكمة اختلف جوهريا عن الطبقات الأخرى.

أ- نساء الطبقة الخاصة:

وتضم نساء الخليفة من زوجات وجواري ونساء الحاشية، إضافة إلى الخادمات المقربات اللائي كن يشرفن على خدمة الخليفة وأهل بيته وحاشيته، كالإشراف على مائدة الخليفة التي كانت تسند للنساء فقط، والإشراف على خزانة ألبسة الخليفة إلى ما هنالك من وظائف القصور ويطلق الموكلات بها المستخدمات عند الجهات العالية، وقد تمتعت نساء هذه الطبقة بقدر كبير من الاحترام وتمتعن بالنفوذ والقدرة على التأثير في مجريات الأمور، وعلى رأسهن نساء الخليفة اللائي لقبن بالجهة المعظمة أو الجهة المعظمة، وعلى باقي نساء الأسرة الست الشريفة.

وكن لا يختلطن بالعامة وحظين بكل ملذات الحياة من المال والنفوذ، وكانت ألبستهن في غاية الأبهة تتكون من المواد الثمينة من الذهب والحرير وتتدرج قيمة اللباس حسب مكانة المرأة أدناه الحرير الذي تلبسه الخادمات.

بـ- نساء الطبقة العامة:

تمتعت نساء هذه الطبقة كباقي المسلمات في الأمصار الاسلامية بحقوقهن كاملة وساهمن في من موضعهن وحسب قدرتهن في توفير حاجياتهن كربات بيوت وكانت لهن مساهمات اقتصادية، ومن المهن الخاصة بالنساء والتي منعت في المجتمع الفاطمي النائحة (البكاء على الميت)، وقد عانت المرأة الفاطمية في بعض الفترات السياسية المضطربة كما عانين في خلافة الحاكم المضطرب الذي منعهن

من الخروج من منازلهن وتعرضن في خلافته لكثير من المهالك لما كان يفعله مع عبيده من حرق للممتلكات وانتهاك للحرمات فسبيت نساء خلق كثير، ففعل بهنّ الفواحش والمنكرات، حتى إنّ منهنّ من قتلت نفسها خوفا من العار والفضيحة، واشترى الرجال منهم من سبي من نسائهم من أيدي العبيد، ومع هذا كان لهن حرية الخروج الى الاسواق والمساجد والمجالس العلمية والحمامات الخاصة بهن وحتى إلى الشواطئ للتنزه.

وكانت ألبسة وزينة نساء العامة بسيطة باستثناء نساء بعض التجار، وقد لبست النساء المسلمات الحرائر الخمار والنقاب لتغطية الوجه والذي يلبس خارج المنزل والجلباب أو الثوب، ولبسن سراويل قصيرة تحت أثوابهن وفوق ثيابها ملاءة واسعة فضفاضة تخفي كامل جسدها، وكانت المرأة التي تخالف ذلك وتظهر مفاتنها تحاسب من طرف المحتسب.

جـ- الجواري:

عومل العبيد قبل الاسلام معاملة البهائم أما الإسلام عامل الرقيق معاملة تجمع بين العدالة والإحسان والرحمة وأمر بذلكوألغى الفروق بين السيد والعبد وساوى بينهما في الانسانية وفي الحقوق، فقد كانت الجواري لا يحصين في المجتمع الاسلامي بما فيه الفاطمي، وكن من مختلف الأعراق والأمصار حيث كان يحضرهن النخاسون (تجار العبيد) ويبعن في أسواق النخاسة وأغلبهن من غير المسلمات لأنّه لا يجوز استرقاق المسلم (إلّا إذا كان كافرا ثم أسلم أو ولد لجارية كافرة فإنّه يتبعها في الرق)، فعشن في المجتمع الفاطمي حسب تعاليم الشريعة الاسلامية.

غير أن واقع الجواري اختلف حسب ما يبرعن فيه وحسب وظائفهن وحسب جمالهن، فمنهن من ولجن قصور الخلفاء والحاشية لجمالهن ومنهن من صرن محضيات عند الخلفاء وأنجبن خلفاء فالخليفة العزيز أشهر زوجاته جارية نصرانية وهي أم ست الملك أخت الحاكم بأمر الله، والخليفة الظاهر أمه جارية وتزوج من جارية أنجبت إبنه الخليفة المستنصر، أو براعتهن في الغناء والموسيقى فكانت الجارية الماهرة بالغناء تباع بأثمان باهظة، أو لبراعتهن في الخدمة حيث كانت خدمة القصور تسند للجواري الماهرات، فأصبحن من خاصة القوم، وأفضل من النساء الحرائر، وهذا لتقريب رجال الخاصة لهن لأحد الاسباب المذكورة فأصبح لهن مكانة عالية وامتلكن أموال طائلة ومن افتقرن للمؤهلات المذكورة يعشن حياة عادية مع باقي المجتمع، وفق أحكام الرق في الحقوق والواجبات من ذلك منعهن من التشبه بالحرائر في لباسهن.

د– نساء اهل الذمة:

تمتعت النساء الذميات في المجتمعات المسلمة بما فيه الفاطمي بحقوقهن وحريتهن وفق شروط عقد الذمة الذي التزم به المسلمون وفق الشريعة الاسلامية التي تضمن لهم العدالة والإحسان والرحمة حيث كانت المرأة الذمية لا تؤخذ منها الجزية بل تفرض على الرجال من أهلالذمة كما تحفظ أنفسهن وأعراضهن وأمالهن بمجرد قبولهن العهد. كما يجب حفظ أعراضهمن وحتى إن زنى مسلم بذمية يقام عليه الحد ولهن الحـق في حـرية المعتقد وممارسة الشعائر الدينية. ولهن الحق في المعاملات الخاصة كالزواج وغيره والحق في الاختلاط بالمسلمين لأهل الكتاب (اليهود والنصارى فقط لأنّ من أهل الذمة المجوس والصابئة) منهمن في الطعام وزواج المسلم من الكتابية ولا يجوز الزواج من غير الكتابية بإجماع الأمة. وحق الزوجة الذمية (الكتابية) المتزوجة من مسلم في العدل مع الزوجة المسلمة في النفقة والسكنى. ولها الحق في الطلاق والخلع. إضافة إلى توقيرهن واحترام خصوصياتهن. ولهن حق التأمين عند العجز والشيخوخة والفقر، قال سيدنا عمر بن الخطاب τ: "ما أنصفناه إذا أخذنا منه الجزية في شبيبته ثم نتركه في هرمه" وقد أمر τ وكذلك الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بصرف معاشات من بيت مال المسلمين للعجزة والمسنين من أهل الكتاب.

وكان عليهن عدم التشبه بالمسلمات في أزيائهن وتغيير هيئاتهن حتى يعرفن أنّهن غير مسلمات ويعرف ما لهن وما عليهن.

وعاشت الذميات في كنف التسامح والحرية في أغلب فترات التاريخ الفاطمي الذي تساهل أكثر مع الذميين حتى وصلوا إلى أعلى المناصب، وبلغ ذلك أوجه في عهد الخليفة العزيز بالله (365-386هـ/ 975-996م) الذي كانت زوجته جارية نصرانية، غير أنّ ذلك تغير في عهد خليفته الحاكم بأمر الله الذي ضيق على كل النساء حتى المسلمات وعلى أهل الذمة من الناحية الدينية والاجتماعية تضييقا لم يسمع بمثله، وشهد عصر المستنصر بالله (427-487هـ/ 1035-1094م) شيئا من التضييق ولكنه لا يقارن بما فعل الحاكم بأمر الله وكان دافعه (المستنصر) إلى ذلك إستطالة الذميين على المسلمين لما وجدوه من التسامح، ففرض على الذميات لباسا معينا بوضع الزنار وأن يعلقن في رقابهن الدراهم تكتب عليها ذمي أو خاتم تعرفن به في الحمامات، ويخالفن في لون أحذيتهن جهة حمراء وأخرى سوداء والجلاجل في أرجلهن.

2- دور المرأة الفاطمية في المشرق في العصر الفاطمي:

أ- دورها في الجانب السياسي:

تمكنت المرأة الفاطمية من الطبقة الحاكمة من ترك بصمتها في الحياة السياسية المضطربة التي كثرت فيها الدسائس والمؤامرات والصراع بين أطياف الدولة، وتمكنّ حتى من التأثير في منصب الخليفة وتغيير مجرى الأحداث على رأسهن ست الملك (ت 415هـ/1024م)ابنة الخليفة العزيز بالله وأخت الخليفة الحاكم، التي كانت ذات شان في خلافة والدها العزيز فكان يحترم تدخلاتها في شؤون الحكم، غير أنّ أثرها السياسي يظهر بقوة في خلافة أخيها الحاكم ثم ابنه الظاهر، فقد كان لست الملك دور في خلافة الحاكم في بدايتها لصغر سنه وبعد كبره صار يستشيرها ويسمح بتدخلها في الأمور الداخلية والخارجية، ولكن ساءت العلاقة بينهما مع الوقت، فذاق بها الحاكم ذرعا ومن تدخلاتها وأساء إليها وكان هذا ديدنه مع الكثير من رجال الدولة والرعية، فتمكنت حسب كثير من المؤرخين من التآمر عليه لسياسته المتقلبة خوفا من ذهاب الدولة وتمكنت من قتله سنة (411هـ/م) وتولية ابنه الظاهر مكانه والذي يأتي مع القرن الخامس الهجري وهو عصر جديد عصر الضعف الذي زاد فيه تدخل النساء الفاطميات بقوة في الحياة السياسية بعد أن صار يصل الى الخلافة خلفاء صغار السن ضعاف التدبير بداية بالظاهر الذي كان صغير السن، فتولت عمته ست الملك الوصاية عليه وإدارة الدولة مكانه وكانت لها الكلمة العليا في تنصيب رجال الدولة والقضاء عليهم ودامت سطوتها إلى وفاتها.

ومنهن زوجة الخليفة العزيز بالله التي كانت جارية نصرانية وكان لها تأثير في خلافته خاصة في علاقته بالنصارى الذين أعطتهم امتيازات عديدة خاصة المناصب العالية، والسيدة رصد أم الخليفة المستنصر بالله (427-487هـ/1035-1094م) وهي جارية سوداء ظهر تأثيرها بعد وصول ابنها إلى الخلافة وسنه سبع سنين، فتولت مقاليد الأمور مكانه واحاطت نفسها بمظاهر السلطة وتسمت بالسيدة والملكة ومولاتنا، واستعملت ذلك في مراسلاتها المختلفة وتدخلت في الشؤون الداخلية والخارجية وتمكنت من إدارة المناصب السامية تولية وعزلا، وتدخلت في الجيش فاستكثرت من الجند الأسود وقربتهم فتسببت بذلك من تأجيج الصراع بين كتائب الجند خاصة بين الأتراك والسودان الذين اندلعت بينهم معارك طاحنة استنزفت قوة الدولة، وكان ذلك من أسباب بث الفتنة أكثر بين الجند ثم

ضعف الدولة فقد كانت سياستها هذه أسوء ما فعلت حتى استبد الجند الأتراك خصوم الجند الأسود بالسلطة وصادروا أموالها وزالت سلطتها.

ولما زاد تسلط الجند واضطربت الأوضاع استدعى الخليفة من الشام القائد العسكري الإرميني بدر الدين الجمالي (465-487هـ/1073-1094م) ليضبط الاوضاع ويعيد الاستقرار، وبهذا دخل عنصر جديد إلى الجيش، وكل هذه المشاكل من أبرز أسبابها تدخل أم المستنصر في السلطة واستكثار عنصر من الجند وتقويته على حساب العناصر الأخرى ما أدى إلى الفوضى والضعف.

واستمر تأثير النساء في السياسة الفاطمية إلى آخر العهد الفاطمي، ففي خلافة العاضد لدين الله (555-567هـ/1160-1171م) الذي كان مستضعفا من وزرائه كان لعمتيه الكبرى وخاصة الصغرى الملقبة بسيدة القصور دور في سياسة الدولة، وتمكنت من إبعاد منافسيها في الوزارة واستمرت دسائسها إلى دخول صلاح الدين إلى القاهرة وإسقاط الدولة الفاطمية (567هـ/1171م).

بـ- دورها في الجانب الاقتصادي والاجتماعي:

بالرغم من الثراء والرفاه الذي عرفته الدولة الفاطمية إلّا أنّ دور المرأة الفاطمية الاقتصادي والاجتماعي أضعف من السياسي، فأبرز ما تميزن به امتلاك نساء الخاصة لأموال طائلة ساهمن بها في بناء المنشآت المختلفة، وكان لنساء العامة مساهمات إقتصادية كمساهمتهن في صناعة النسيج التي ازدهرت في مصر الفاطمية حتى في بيوت نساء العامة، كما مارسن مهن أخرى كغسل الموتى والقابلة وتزيين العرائس وبيع الملابس الجاهزة، وأكثر من ذلك كانت النساء أكبر ضحايا الأزمات الاقتصادية، واهتمت بعض النساء الخاصة بالفئات الهشة من النساء كزوجة الخليفة الآمر بأحكام الله جهة مكنون والمسماة علم الآمرية التي أقامت دار خاصة للعجائز والأرامل سنة (526هـ/1131م) وكان لها صدقات وبرّ وخير.

جـ- دورها في الجانب الديني والعلمي:

لا نجد للمرأة الفاطمية تأثير وأدوار علمية بارزة، ومما نجده أنها ساهمت في بناء العديد من المساجد كجامع القرافة الذي بنته السيدة تغريد زوجة الخليفة المعز وهو ثاني جامع بعد الازهر، ومسجد السيدة رقية الذي شيدته علم الآمرية زوجة الخليفة الآمر بأحكام الله سنة (527هـ/1132م)، وبعض النساء عملن بالوعظ والقاء الدروس الدينية كالسيدة أم الخير الحجازية التي كانت وعظة زمانها وكان لها رباط باسمها وتدرس النساء في جامع عمرو بن العاص، أما أشهر

مجالس الوعظ والتعليم التي ترتادها النساء فقد كانت تحت إشراف الدولة وهي مجالس الدعاة التي يؤمها كبار دعاة الاسماعيلية وكانت تعقد بصفة دورية لتفقيه نساء الدولة.

يتبين لنا في الأخير أنّ المرأة في المجتمع الفاطمي المشرقي على مختلف طبقاته تمتعت بحقوقها الشرعية وعلى رأسهن نساء الطبقة الحاكمة اللائي تفوقن على باقي النساء في التأثير في الحياة العامة وخاصة في الجانب السياسي.